أوجه الرحمة

في العبادات الصلاة نموذجاً

إعداد:

د. فاطمة الزهراء إسماعيل وغلانت

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونصلي ونسلم على أشرف مبعوث للعالمين، سيدنا وقدوتنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه الكرام الطيبين، ومن تبعهم، وانتهج بنهجهم، واستن بسنتهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن الله سمى نفسه العلية ووصفها بالرحمن الرحيم عز شأنه وتعالى جده، خلق الخلق وهو اللطيف الخبير الرحيم بهم، شرع لخلقه من الدين ما يسمو بهم ويزكيهم، مراع في ذلك قدراتهم وضعفهم وهناتهم، فكانت الرحمة بذلك خصيصة ومزية شرعه الحنيف، وما مقاصد تشريع الأحكام إلا رحمة بالخلق ولطفا بهم، وأسمى هاته المقاصد هو تحقيق العبودية لله جل جلاله بكل معانيها، قال ابن القيم رحمه الله لرحمة واسعة: "فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد، في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها" (١).

فمن لطف الرحمن بخلقه أن سن لهم سننا تحميهم غائلة النفس والشيطان، وذلك بجعل الرابط والواصل الدائم بين الخلق والخالق المتمثل في العبادات المشروعة وفي الصلاة تحديدا، فلم يترك الإنسان

(١) إعلام الموقعين، ابن القيم، ٣/١٤-١٥.

يتخبط في الأوهام والبدع والفوضى، بل أحاطه برعاية بالغة تحميه من صولات الجهل والكفر، فشرع له الصلاة، وبينها له من غير إفراط ولا تفريط، وهذا قمة الرحمة بالإنسان، فكانت هي همزة الوصل بين الرحمن وخلقه، فكلما ضاق الأمر بهم وجدوا سعة في عبادته فصدق الصادق المصدوق المبعوث رحمة للعالمين، حين قال في شأن الصلاة: "يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها"(٢). فالراحة الموجودة بها في الصلاة هي من رحمة الله بعباده، فهم يستأنسون بها ويرتاحون فيها وبها، فهي عماد الدين وحياة للقلوب، لما لها من فضائل ومنافع في العاجل والآجل، ولهذه الأهمية البالغة لعبادة الصلاة وددت البحث في أوجه الرحمة فيها، فقسمت الموضوع إلى مدخل مفاهيمي، ضبطت فيه مصطلحات العنوان، بما يتماشى مع طبيعة الموضوع خاصة أهداف الملتقي عموما، ثم أردفته بثلاثة مباحث رئيسية كالآتي:

المبحث الأول: أوجه الرحمة في مشروعية الصلاة ومقاصدها.

المبحث الثاني: أوجه الرحمة في تنوع الصلاة إلى الفروض والسنن.

المبحث الثالث: أوجه الرحمة في الصلوات المخصوصة.

وأنهيت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج المتوصل إليها في البحث.

أهداف البحث:

أسعى من خلال هذه المداخلة إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. إبراز عظمة التشريع الإسلامي من خلال إبراز صفة الرحمة في عبادة الصلاة.

(٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، حديث رقم ٤٩٨٥، ٢٩٦/٤، قال الألباني: صحيح

٢. الرد على الشبهات- بشكل غير مباشر- المغرضة حول التشريع الإسلامي عموما وحول تحكمية العبادات خصوصا، لأن الله لم يتعبدنا بالمشقة، ولا بالمستحيل، كما أنه لم يصادر حرية البشر، بل نظمها وقننها حتى لا تتعارض الأغراض والمصالح فيقع الناس في الحرج، ولعل نموذج الصلاة كان كافيا في إبراز رحمة الله بالعباد في كل صغيرة وكبيرة، يقومون بها في الصلاة، فالخير كل الخير واصل للعباد بهذه الصلة.

٣. تنبيه الغافل عن صلاته وما فاته من رحمات جراء استهتاره بها.

٤. دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ببيان ما في هذه الشعيرة من مصالح في العاجل والآجل.

٥. أمة محمد أمة رحمة وتعاطف وخير، وليست أمة عنف وشر.

٦. تعزيز الثقة بديننا الحنيف وبشريعتنا الغراء، وبانتمائنا العريق إلى أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

مدخل مفاهيمي

يتناول هذا المدخل التعريف بمصطلحات الموضوع الواردة في عنوان البحث والتأصيل لها، وبيان العلاقة فيما بينها بما يخدم الموضوع خاصة، ويخدم موضوع الملتقى عموما، ولذا فإننا سنتطرق إلى تعريف كل من مصطلح الرحمة والعبادة والصلاة، والتأصيل لكل منها مع بيان معانيه وإطلاقاته، ثم العلاقة بين هذه المصطلحات.

أولا: تعريف الرحمة:

١. مدلول الرحمة في اللغة:

تدور مادة (ر ح م) حول الرقة والعطف والرحمة، قال الجوهري رحمه الله (ت ٣٩٣هـ): "الرقة والتعطف. والمرحمة مثله. وقد رحمته وترحمت عليه. وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضا. والرحموت من الرحمة" (٣).

وكذا قال ابن فارس رحمه الله (ت٣٩٥هـ): "الراء والحاء والميم أصل واحد، يدل على الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك رحمه يرحمه، إذا رق له وتعطف عليه. والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى. والرحم: علاقة القرابة، ثم سميت رحم الأنثى رحما من هذا، لأن منها ما يكون ما يرحم ويرق له من ولد"(٤).

والرحمة عند أهل اللغة تستوجب طرفين: أحدهما راحم، والآخر مرحوم، ولكل من الطرفين صفة تستدعي التعلق بالطرف الثاني، فالعلاقة بينهما عبارة عن انفعالات نفسية، وهي عبارة عن صفات تصدق على الخلق لا على الخالق، فهو منزه سبحانه وتعالى عن الانفعالات النفسية التي تعرض للبشر، وللراغب رحمه الله (ت٥٠٢هـ) كلام دقيق وجميل في هذا المقام، نستعرضه لبيان المراد بالرحمة في هذا البحث" "الرحمة- في اللغة- رقة مقتضية للتعطف، والتفضل الذي هو فعل. فالإنسان إذا وصف

(٣) الصحاح، الجوهري، ١٩٢٩/٥، مادة رحم، وكذا ذكره صاحب اللسان ٢٣٠/١٢.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤٩٨/٢، مادة رحم.

بالرحمة، فتارة يراد به حصول المبدأ الذي هو الرقة، وتارة يراد به المنتهى الذي هو التفضل والعطف، وتارة يرادان معا.

وإذا وصف بها الباري، فليس يراد به إلا المنتهى الذي هو الفعل دون المبدأ الذي هو الانفعال، إذ هو منزه عن الانفعالات وعن كل نقص- تعالى الله عن ذلك- وعلى ذلك: "الرؤوف فإن الرأفة انعصار القلب عن مشاهدة شدة مقتضية للإعانة....، وهذا التفسير- أعني في الرحمة- هو ما روي عن التابعين، حيث قالوا: الرحمة من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميين رقة وتعطف، وهذه الطريقة أظهر وأبين"(٥).

ونحى هذا النحو في تفسير الرحمة أبو حامد الغزالي رحمه الله (ت٥٠٥ هـ) حيث قال: "الرحمة لا تخلو عن رقة مؤلمة تعتري الرحيم، فتحركه إلى قضاء حاجة المرحوم، والرب سبحانه وتعالى منزه عنها" (٦).

ولمصطلح الرحمة إطلاقات في اللغة، نذكر منها:

أ. المغفرة: قال ابن منظور رحمه الله (ت٧١١هـ): "والرحمة: المغفرة؛ وقوله تعالى في وصف القرآن: (**هُدًى ورَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**)؛ أي فصلناه هاديا وذا رحمة؛... وقال الله سبحانه وتعالى: (**وتَوَاصَوْا**

(٥) مقدمة جامع التفاسير، الراغب الأصفهاني، ١١٤-١١٤.
(٦) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، ٦٢- ٦٣.

بِالصَّبْرِ وتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ) [القلم: ١٧]؛ أي أوصى بعضهم بعضا برحمة الضعيف والتعطف عليه. وترحمت عليه، أي قلت: رحمة الله عليه" (٧).

ب. الرزق: نقل ابن منظور عن الأزهري قوله: "قال عكرمة في قوله (ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا): أي رزق، (وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ): أي رزقا، **(ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)** [الأنبياء: ١٠٧]: أي عطفا وصنعا، وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء: أي حيا وخصبا بعد مجاعة، وأراد بالناس الكافرين. والرحموت: من الرحمة. وفي المثل: رهبوت خير من رحموت، أي لأن ترهب خير من أن ترحم، لم يستعمل على هذه الصيغة إلا مزوجا، وترحم عليه: دعا له بالرحمة. واسترحمه: سأله الرحمة" (٨).

ج. الغيث: "وسمى الله الغيث رحمة لأنه برحمته ينزل من السماء"(٩).

٢. مدلول الرحمة اصطلاحا:

نسوق تعريفين للرحمة اصطلاحا لاختيار واحد منهما لبيان معنى الرحمة في هذا البحث تحديدا.

أ. عرفها الجرجاني رحمة الله (ت٨١٦هـ): "هي إرادة إيصال الخير"(١٠).

ولفظ الخير جامع لكل المعاني الداخلة في الرحمة من مغفرة، ورزق، وثواب، وعطف، ويسر ورفع حرج،...الخ.

(٧) لسان العرب، ابن منظور، ٢٣٠/١٢.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) المصدر نفسه، ٢٣٢/١٢.
(١٠) التعريفات، الجرجاني، ١١٠.

ب. وعرفها الكفوي رحمه الله (ت١٠٩٤هـ) بقوله: "الرحمة حالة وجدانية تعرض غالبا، لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان" (١١)، فيصدق هذا الوصف على المخلوقات دون الخالق، لأن فيه انفعالا وجدانيا وهو ما تنزه الرحمن سبحانه وتعالى عنه.

نجد أن تعريف الجرجاني للرحمة اصطلاحا يتوافق والمعنى الذي قرره الراغب في تعريفه للرحمة لغة، ومن قبله السلف الصالح من كون الرحمة من الله إنعام وإفضال، وكلاهما إيصال للخير، ومن الآدميين رقة وتعطف، وكلاهما سبب في إيصال الخير.

فرحمته سبحانه وتعالى اقتضت أن تعم الجميع، فهي رحمة كاملة لا نقصان فيها، والخير عام لا نقصان فيه، وفي هذا يقول الغزالي رحمه الله "وإنما الرحمة التامة إفاضة الخير على المحتاجين، وإرادته لهم عناية بهم، والرحمة العامة هي التي تتناول المستحق وغير المستحق. ورحمة الله سبحانه وتعالى تامة وعامة أما تمامها فمن حيث أنه أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها وأما عمومها: فمن حيث شمولها المستحق وغير المستحق.

وعم الدنيا والآخرة وتناول الضرورات والحاجات والمزايا الخارجة عنهما فهو الرحيم المطلق حقا" (١٢).

إذا الرحمة هي إيصال الخير، وهذا هو التفضيل أو الإفضال والإنعام.

(١١) الكليات، أبو البقاء الكفوي، ٤٧١.

(١٢) المقصد الأسنى، أبو حامد الغزالي، ٦٢.

ثانيا: تعريف العبادة:

١. مدلول العبادة لغة:

هي من مصدر (ع ب د)، قال ابن فارس رحمه الله "العين والباء والدال أصلان صحيحان، كأنهما متضادان، و[الأول] من ذينك الأصلين يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ.

فالأول العبد، وهو المملوك، والجماعة العبيد،... والأصل الآخر العبدة، وهي القوة والصلابة؛ يقال هذا ثوب له عبدة، إذا كان صفيقا قويا" (١٣).

وقال ابن منظور رحمه الله: "العبد: الإنسان، حرا كان أو رقيقا، يذهب بذلك إلى أنه مربوب لباريه، جل وعز،... والعبد: المملوك خلاف الحر؛... وأصل العبودية الخضوع والتذلل... وتعبد الله العبد بالطاعة أي استعبده؛.... يقال: تعبدت فلانا أي اتخذته عبدا، مثل عبدته سواء... وكل من دان لملك فهو عابد له... والمعبد: المكرم في بيت حاتم، حيث يقول: تقول: ألا تبقى عليك، فإنني... أرى المال عند الممسكين معبدا؟" (١٤).

وقال الراغب رحمه الله: "العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله سبحانه وتعالى،... وجمع العبد الذي هو مسترق: عبيد، وقيل: عبدي، وجمع العبد الذي هو العابد عباد، فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد. ولهذا قال:

(١٣) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/٢٠٥-٢٠٦، مادة عبد.

(١٤) لسان العرب، ابن منظور، ٣/٢٧٠-٢٧٤، مادة عبد.

(ومَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)[ق: ٢٩]، فنبه أنه لا يظلم من يختص بعبادته ومن انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد الشمس وعبد اللات ونحو ذلك" (١٥).

٢. مدلول العبادة في الاصطلاح:

عرفت العبادة في الاصطلاح بعدة تعريفات منها:

أ. عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (ت٧٢٨هـ): "العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"(١٦).

ب. عرفها ابن القيم رحمه الله (ت٧٥١هـ): "العبادة هي الحب والذل"(١٧).

ج. عرفها الجرجاني رحمه الله بأنها: "فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيما لربه" (١٨). ولا يكون فعل المكلف مخالفا لهواه إلا كان محبة في الله.

وهذه التعريفات متقاربة في معناها، حيث نجد أن مفهوم العبادة عند ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله لا يكفي فيه التوقف عند المعنى اللغوي لها، بل لابد أن يلازمها ويصاحبها محبة الله والشوق إليه، وهو مفهوم شامل لكل ما يحبه الله من العبد من الائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه، وكل القربات والطاعات المباحة "فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان

(١٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ٥٤٢- ٥٤٣.
(١٦) العبودية، ابن تيمية، ٤٤.
(١٧) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، ابن قيم الجوزية، ١٨٦.
(١٨) التعريفات، الجرجاني، ١٤٦.

للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة" [١٩]. وهذا المفهوم الشامل يتفق مع معنى العبودية عند الجرجاني رحمه الله حيث يقول: "العبودية الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود"[٢٠].

ومنه نجد أن العبادة والعبودية جميعها تشترك في معنى الخضوع والذل حبا ورغبة في رضا الله.

٣. إطلاقات العبادة:

للعبادة إطلاقان: خاص وعام [٢١]- والغرض من التطرق لها هو لبيان العلاقة بين هذه الإطلاقات، ومدلول الصلاة لاحقا.

أ. الإطلاق الخاص للعبادة: وهو إطلاق اصطلاحي درج عليه الفقهاء في مؤلفاتهم حين قسموا أبواب الفقه إلى عبادات ومعاملات، فالعبادات بمعناه الخاص عندهم تشمل بعد الإيمان بالله الطهارة، والصلاة، والصيام، والاعتكاف، والزكاة، والحج، والعمرة، والجهاد، والكفارات، والأضحية، والذكاة، والعقيقة [٢٢]، فسموا هاته الأبواب بالعبادات، لأن حق الله خالص فيها، فهو الذي فرضها وأنشأها، فهي من عنده جملة وتفصيلا، فميزوها بذلك عن المعاملات التي قد يكون حق العبد فيها

(١٩) العبودية: ابن تيمية/ ٤٤.

(٢٠) التعريفات، الجرجاني، ١٤٦.

(٢١) للتفضيل يرجع إلى: الحكم الشرعي بين النقل والعقل، ومدونة الفقه المالكي وأدلته للشيخ الصادق بن عبد الرحمن الغرياني.

(٢٢) على اختلاف بسيط في ترتيبها.

خالصا مثل الحق المالية في البيع والشراء، والعقود، وقد يكون مشتركا، مثل القصاص في الجنايات وحد القذف إلى غير ذلك(٢٣).

ب. الإطلاق العام للعبادة: ويشمل جميع الأعمال النافعة الظاهرة والباطنة كما ذكرها ابن تيمية رحمه الله.

٤. علاقة الرحمة بالعبادة:

يقول ابن القيم رحمه الله: "إن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد، وإن كرهتها نفسه، وشقت عليها. فهذه هي الرحمة الحقيقة...، ولهذا كان من إتمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد، فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير من أعراضه وشهواته: من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربه بابتلائه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه" (٢٤).

ثم يستأنف رحمه الله ممثلا لأوجه رحمة الله بعباده: "فمن رحمته سبحانه وتعالى بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمة وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد، ولا بخلا منه عليهم بما نهاهم عنه، فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته: أن نغص عليهم الدنيا وكدرها، لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في داره وجواره، فساقهم إلى ذلك بسياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافيهم، وأماتهم ليحييهم.

---

(٢٣) مدونة الفقه المالكي وأدلته، الغرباني، ١٢ بتصرف.

(٢٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، ١٧٤/٢.

ومن رحمته بهم: أن حذرهم نفسه، لئلا يغتروا به، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به" (٢٥).

فحقيقة الرحمة هي جلب مصالح الخلق، ودرء المفاسد عنهم في العاجل والآجل، وهذه المصالح وتلك المفاسد هي ما يقرره الشرع لا الخلق، لأنها مقرونة بمعارضة الهوى، وما يشق ظاهرا على النفس، ثم مثل ابن القيم رحمه الله بأمثلة في هذا الصدد، منها: ابتلاء الخلق بالأوامر والنواهي، أي التكاليف، منها العبادات المقررة بمفهوميها العام والخاص.

فمن معاني الرحمة إيصال المصالح ودفع المفاسد عن الخلق، ويكون هذا بالعبادة أي بدخول العبد تحت التكاليف (الأوامر والنواهي) الذي يضمن له النجاة ومن هذه التكاليف العبادات.

ثالثا: تعريف الصلاة:

١. مدلول الصلاة لغة:

"(صلى) الصاد واللام والحرف المعتل أصلان: أحدهما النار وما أشبهها من الحمى، والأخر جنس من العبادة.

فأما الأول فقولهم: صليت العود بالنار. والصلى صلى النار، واصطليت بالنار، والصلاء: ما يصطلى به، وما يذكى به النار ويوقد... وأما الثاني: فالصلاة وهي الدعاء. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب، فإن كان مفطرا فليأكل، وإن كان صائما فليصل"، أي فليدع لهم بالخير والبركة... والصلاة هي التي جاء بها الشرع من الركوع والسجود وسائر حدود الصلاة" (٢٦).

(٢٥) المصدر نفسه، ٢/١٧٤- ١٧٥.

(٢٦) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/٣٠٠، مادة صلى.

وجاء في اللسان: "الصلاة: الركوع والسجود، فأما قوله، صلى الله عليه وسلم: لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد، فإنه أراد لا صلاة فاضلة أو كاملة، والجمع صلوات. والصلاة: الدعاء والاستغفار،.. والصلاة من الله تعالى: الرحمة" (٢٧).

بالنظر في التعريف اللغوي للصلاة نجد أن من مدلولاتها أنها العبادة بإطلاقاتها، فكل من المعنى الخاص والعام للعبادة يصدق في الصلاة لغة.

٢. مدلول الصلاة اصطلاحا:

عرف الجرجاني رحمه الله الصلاة أنها: "عبارة عن أركان مخصوصة، وأذكار معلومة، بشرائط محصورة في أوقات مقدرة، والصلاة أيضا: طلب التعظيم لجانب الرسول صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة" (٢٨).

وبالجمع بين المدلول اللغوي الذي لا يختلف كثيرا عن المدلول الاصطلاحي للصلاة نقول: الصلاة هي عبادة ذات أركان مخصوصة وأذكار معلومة، بشرائط مقدرة.

مما سبق ذكره في التعريفات لحد الرحمة والعبادة والصلاة، نخلص إلى أن عبادة الصلاة هي سبب حصول الرحمة. التي من مضامينها إيصال المنافع ودفع المفاسد عن الخلق. وهذا ما سيترجم في المباحث الآتية من خلال بيان أوجه الرحمة في عبادة الصلاة.

(٢٧) لسان العرب، ابن منظور، ٤/٤٦٤.

(٢٨) التعريفات، الجرجاني، ١٣٤.

المبحث الأول

أوجه الرحمة في مشروعية الصلاة ومقاصدها

الصلاة ركن من أركان الإسلام، وهي عماد الدين، وهي من أعظم العبادات شأنا بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى، "ولذلك اعتنى الشارع ببيان فضلها، وتعيين أوقاتها وشروطها وأركانها وآدابها ورخصها ونوافلها اعتناء عظيما، لم يفعل في سائر أنواع الطاعات، وجعلها من أعظم شعائر الدين" (٢٩).

وهذه الأولوية في الترتيب إنما هي ناشئة عن فائدة وأهمية الصلاة في حياة الإنسان، يقول العز بن عبد السلام رحمه الله (ت٦٦٠هـ): "وترتيب فضائل العبادات برتب فوائدها، فأعظم العبادات فائدة هي أفضل العبادات، وذلك معرفة الله سبحانه وتعالى، والإيمان الذي شرط في كل عبادة،...

فمن العبادات ما تختص فائدته بالمكلف، كالصوم، والحج، والعمرة، والاعتكاف، ومنها ما يتعدى المكلف: كالصدقات والكفارات، وعلى قدر التعدي يكون الفضل. فكذلك كتاب الصلوات أفضل عبادات الأبدان، بعد المعرفة والإيمان" (٣٠).

ويدل على هذه الأفضلية أدلة عديدة، منها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل؟ قال: "الصلاة لوقتها" قال: قلت ثم أي؟ قال: "بر الوالدين" قال: قلت: ثم أي؟ قال: "الجهاد في سبيل الله" (٣١).

---

(٢٩) حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ١/٣٤٥.

(٣٠) مقاصد العبادات، العز بن عبد السلام، ١٢.

ولذا كان في تشريع الصلاة حكم ومقاصد، قصدها الشارع الحكيم بها، نلمس فيها رحمته التي هي إنعامه وتفضله بالخيرات على العباد، وهذا ما سنقف عليه إن شاء الله في هذا المبحث من خلال نقاط هي كالتالي:

أولا: الصلاة زاد للعبد:

شرع الله الصلاة عبادة تصل العبد بربه، وقد علم سبحانه وتعالى ضعف عبده وتردده بين الخير والشر، فجعل له الصلاة ملجأ يضبط به نفسه، ويعود به إلى سواء السبيل، فالصلاة بمثابة تلك الطاقة، التي يتزود بها الإنسان على غوائل نفسه ووسوسة الشيطان، فهي رحمة من عند الله، حبي بها عباده، قال ابن القيم رحمه الله:

"ولما امتحن الله سبحانه وتعالى عبده بالشهوة وأشباهها من داخل فيه وخارج عنه، اقتضت تمام رحمته به وإحسانه إليه أن هيأ له مأدبة، قد جمعت من جميع الألوان والتحف والخلع والعطايا، ودعاه إليها كل يوم خمس مرات، وجعل في كل لون من ألوان تلك المأدبة، لذة ومنفعة ومصلحة ووقار لهذا العبد، الذي قد دعاه إلى تلك المأدبة ليست في اللون الآخر، لتكمل لذة عبده في كل من ألوان العبودية، ويكرمه بكل صنف من أصناف الكرامة" (٣٢)، وهذا في العاجل، وأما الآجل فهي ضيافة في

(٣١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان بالله سبحانه وتعالى أفضل الإيمان، حديث رقم ٨٥، ٨٩/١، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب وسمى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عملا، حديث رقم ٧٥٣٤، ١٥٦/٩.

(٣٢) أسرار الصلاة، ابن قيم الجوزية، ٥٧

الجنة، كلما غدا إليها المسلم، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه: "من غدا إلى المسجد، أو راح، أعد الله له في الجنة نزلا، كلما غدا، أو راح" (٣٣).

فمن رحمته سبحانه وتعالى أن جعل الصلاة هي همزة الوصل بين العبد وربه، يناجيه فيها، ويتذلل له، ويسأله حاجته، فيجدد العبد العهد بربه خمس مرات في اليوم، فالصلاة سبب موصل للقرب من الله ومحبته والأنس به، وهذا من رحمته سبحانه وتعالى على خلقه.

ثانيا: الصلاة قربة بين العبد وخالقه:

ومن مقاصد تشريع الصلاة أن جعلها سببا لإقبال العبد على ربه، ينتفع بقربه، وهذا من فضل الله على عبده، قال ابن تيمية رحمه الله في هذا الشأن: "وسر الصلاة وروحها ولبها، هو إقبال العبد على الله بكليته فيها، فكما أنه لا ينبغي أن يصرف وجهه عن القبلة إلى غيرها فيها، فكذلك لا ينبغي له أن يصرف قلبه عن ربه إلى غيره فيها" (٣٤).

ثالثا: الصلاة رحمة الله المهداة للمؤمنين:

قال ابن القيم رحمه الله: "فاعلم أنه لا ريب أن الصلاة قرة عيون المحبين، ولذة أرواح الموحدين، وبستان العابدين، ولذة نفوس الخاشعين، ومحك أحوال الصادقين، وميزان أحوال السالكين، وهي رحمة الله المهداة إلى عباده المؤمنين، هداهم إليها، وعرفهم بها، وأهداها إليهم على يد رسوله الصادق الأمين، رحمة بهم، وإكراما لهم، لينالوا بها شرف كرامته، والفوز بقربه لا لحاجة منه إليهم، بل منة منه، وتفضلا

(٣٣) صحيح البخاري، كتاب الآذان، باب فضل من غدا إلى المسجد وراح، حديث رقم ٦٦٢، ١٣٣/١= صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب "باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا" وترفع به الدرجات، حديث رقم ٦٦٩، ٤٦٣/١.
(٣٤) أسرار الصلاة، ابن قيم الجوزية، ١١٥.

عليهم، وتعبد بها قلوبهم وجوارحهم جميعا، وجعل حظ القلب العارف منها أكمل الحظين وأعظمهما؛ وهو إقباله على ربه سبحانه وتعالى، وفرحه وتلذذه بقربه، وتنعمه بحبه، وانتهاجه بالقيام بين يديه، وانصرافه حال القيام له بالعبودية عن الالتفات إلى غير معبوده، وتكميله حقوق عبوديته ظاهرا وباطنا حتى تقع على الوجه الذي يرضاه ربه سبحانه وتعالى" (٣٥).

فالصلاة في حد ذاتها رحمة وخير قصد به الإنسان، فما عليه إلا الإقبال والتوجه والإخلاص حتى يتم له المراد منها.

رابعا: الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر:

ومن أوجه الرحمة في معاني الصلاة أو مقاصد مشروعيتها أنها تحصين للعبد من الشر، وهي التي قال فيها سبحانه وتعالى: (**إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والْمُنكَرِ ولَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ واللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ**) [العنكبوت: ٤٥].

"أي تكون سببا للانتهاء عن ذلك، ففيه تجوز في الإسناد، فإن قلت: كم من مصل يرتكب ولا تنهاه صلاته! قلت: الصلاة التي هي الصلاة عند الله، المستحق بها الثواب، أن يدخل فيها مقدما للتوبة النصوح متقيا، لقوله تعالى: (**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧)**) [المائدة: ٢٧]، ويصليها خاشعا بالقلب والجوارح. ثم يحوطها بعد أن يصليها، فلا يحبطها، فهي الصلاة التي تنهي عن الفحشاء والمنكر. وعن ابن

(٣٥) المصدر نفسه، ٥٥-٥٦.

عباس رضي الله عنه[٣٦]: من لم تأمره صلاته بالمعروف، وتنهه عن المنكر، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعدا" [٣٧]. فالصلاة تدرأ وتدفع المفاسد عن المصلي، وهذا في حد ذاته رحمة من الله، وكي يدفع العبد عن نفسه المفاسد- الفحشاء والمنكر- عليه أن يكون مخلصا مقبلا بالكلية، حتى تناله الرحمة، ويصبح بمنأى عن شر الفحشاء والمنكر.

خامسا: الصلاة مكفرة للذنوب:

ومن خير الله الجزيل الذي أكرم به عباده عندما شرع لهم الصلاة، أن جعلها مكفرة للذنوب والسيئات، ورافعة للدرجات، للتزكية والتحلية في آن واحد، وهذا ما وردت بشأنه العديد من الأحاديث منها:

١. عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، كفارات لما بينهن" [٣٨].

٢. حديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال له: "عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجد لله سجدة، إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة" [٣٩].

---

(٣٦) نسب صاحب محاسن التأويل هذا الأثر لابن عباس، في حين هو لابن مسعود، ولقد خرجه أبو داود في الزهد من خبر ابن مسعود بلفظ "من لم تأمره صلاته بالمعروف وتنهه عن المنكر لم يزدد من الله إلا بعدا"، ٣٥/١، برقم ١٢٦، والبيهقي في شعب الإيمان، ٥٤٦/٤، برقم ٢٩٩٤، والطبراني في المعجم الكبير، من خبر ابن مسعود، ١٠٣/٩، برقم ٨٥٤٢.

(٣٧) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، ٥٥٦/٧- ٥٥٧.

(٣٨) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، حديث رقم ٢٣٣، ٢٠٩/١.

(٣٩) صحيح مسلم/كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، حديث رقم ٤٨٨، ٣٥٣/١.

٣. عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تطهر في بيته، ثم مشى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاه: إحداهما تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة"(٤٠).

فجلب الحسنة ودرء السيئة عن المصلي هي عين الرحمة التي خص بها الله المصلين، كما جعل سبحانه وتعالى الصلاة تطهيرا للعبد من الآثام وغسل له من الخطايا على امتداد اليوم، وهذا منة منه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟" قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: "فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا" (٤١).

وهذه رحمة الله بعبده، لعلمه به وبضعفه وبقصوره وإتباعه الشهوات وإسرافه على نفسه، فكانت الصلوات الخمس بمثابة محطات تنقية النفس البشرية مما شابها على مدار اليوم، وهذا من قمة الرحمة والرأفة بالعبد.

(٤٠) صحيح مسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا، وترفع به الدرجات، حديث رقم ٦٦٦، ٤٦٢/١.

(٤١) صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة، حديث رقم ٥٢٨، ١١٢/١. صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب المشي إلى الصلاة تمحي به الخطايا، وترفع به الدرجات، حديث رقم ٦٦٧، ٤٦٢/١.

ومن معاني الإنعام والتفضل- اللذين هما بمعنى الرحمة- على الخلق أن جعل الله الصلاة استجلابا لرحمته ومغفرته، عن أبي هريرة، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يزال العبد في صلاة ما كان في المسجد ينتظر الصلاة ما لم يحدث" (٤٢).

فهذه من تمام نعمة الله على العبد المرابط في صلاته، فما كان جزاءه إلا دعوة الملائكة بالمغفرة والرحمة، أليس هذا هو الخير الوفير، الذي يفوت كثيرا من الناس بسبب غفلتهم عن هذه الفريضة، وما يحفها ويتقدمها ويتأخرها من خير عظيم من الوضوء إلى السلام وأذكار الصلاة.

سادسا: الصلاة راحة للعبد:

ومن رحمة الخالق أن جعل لهم الراحة بالصلاة وفيها، فهم يلجأون إليه بها، يناجونه ويستعينون به فيها، فيستجلبون الصلاح بها، ويستدفعون الفساد بها، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أهمه أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول: "يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها" (٤٣)، فهو يعلم صحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، ويعلمنا من بعدهم أن نلجأ إلى الواصلة بيننا وبين الله، فلا سبيل إلى سؤاله والاستعانة به إلا بها، لما فيها من الخضوع والتذلل إليه سبحانه وتعالى، تزيدنا قربا منه وحبا فيه، وهذا كله من رحمته ونعمائه علينا: أن جعل لنا سبيلا، نتصل به في كل وقت وفي كل مكان نلجأ إليه بها.

(٤٢) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب من لم ير الوضوء إلا من المخرجين، من القبل والدبر، حديث رقم ١٧٦، ٤٦/١، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، حديث رقم ٦٤٩، ٤٥٩/١.

(٤٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة، حديث رقم ٤٩٨٥، ٢٩٦/٤، قال الألباني: صحيح.

قال ابن القيم رحمه الله معلقا على هذا الحديث: "أي أقمها لنستريح بها من مقاساة الشواغل، كما يستريح التعبان إذا وصل إلى مأمنه ومنزله وقر فيه وسكن، وفارق ما كان فيه من التعب والنصب" (٤٤).

سابعا: سعة المكان:

ومن زيادة فضل الله على خلقه أن لم يضيق عليهم في مكان الصلاة، فكل مكان طيب طاهر فهو صالح للصلاة فيه، فجعلت الأرض كلها مستباحة للصلاة فيها، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: "جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا" (٤٥). وحتى يكون العبد دائم الاتصال بربه أينما كان، أليس هذا فضل وخير كثير.

(٤٤) أسرار الصلاة، ابن القيم، ١٢٤.

(٤٥) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: "جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، حديث رقم ٤٣٨، ٩٥/١، صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، حديث رقم ٥٢١، ٣٧٠/١.

المبحث الثاني

أوجه الرحمة في تنوع الصلاة إلى الفروض والسنن

أولا: أوجه الرحمة في عدد الصلوات المفروضة:

لم تفرض الصلوات بداية خمسا وإنما فرضت خمسين صلاة ليلة الإسراء والمعراج، وأن نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم سأل ربه الرحيم أن يضع جزءا منها، حتى لا يشق على أمته، وحديث الإسراء يروي لنا كيف تم وضع شطر منها، حتى أصبحت خمس صلوات في اليوم والليلة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ففرض الله علي خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى أمر بموسى، فقال: موسى ما الذي فرض على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة، قال: فراجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فراجعت ربي فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، فقال راجع ربك: فذكر مثله، فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: راجع ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت فراجعت ربي، فقال: هي خمس وهي خمسون، لا يبدل القول لدي، فرجعت إلى موسى، فقال راجع ربك، فقلت: قد استحيت من ربي، ثم انطلق حتى أتى بي السدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أدخلت الجنة، فإذا بها جنابذ (٤٦) اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك" (٤٧).

---

(٤٦) جمع مفردة جنبذة، والجنبذة: ما ارتفع من البناء، قال يعقوب: هي الجنبذة بالضم، والعامة تقول: جنبذة، الدلائل في غريب الحديث، قاسم بن ثابت بن حزم العوفي السرقسطي، ٢٨٧/١.

(٤٧) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام- حديث رقم ٣٣٤٢، ١٣٥/٤= ١٣٦. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، حديث رقم ١٦٢، ١٤٥/١- ١٤٦.

فمن رحمته سبحانه وتعالى وفضله العظيم بخلقه أن جعلها خمسا في الفعل وخمسين في الأجر، وهذا فضل لم يكن لأمم سبقت أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فهو وما جاء به الرحمة المهداة من رب العالمين لخلقه أجمعين. هذا بالنسبة للصلاة المفروضة فرض عين، أما بالنسبة لفرض الكفاية، كصلاة الجنازة، فإن الرحمة فيها شملت كل من المصلي والمصلى عليه، فالمصلي يأخذ الأجر على الصلاة، وهذا خير له من الله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من شهد الجنازة حتى يصلي، فله قيراط، ومن شهد حتى تدفن كان له قيراطان"، قيل: وما القيراطان؟ قال: "مثل الجبلين العظيمين"(٤٨).

أما الميت وهو المصلى عليه، فينتفع بدعاء المصلين عليه، وفي هذا خير كثير، وهو رحمة من الله بعباده، ومما ثبت من الدعاء للميت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وصلى علي جنازة يقول: "اللهم، اغفر له وارحمه، واعف عنه وعافه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بماء وثلج وبرد، ونقه من الخطايا كما ينقي الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارا خيرا من داره، وأهلا خيرا من أهله، وزوجا خير من زوجه، وقه فتنة القبر وعذاب النار" قال عوف: "فتمنيت أن لو كنت أنا الميت، لدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك الميت"(٤٩).

(٤٨) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب من انتظر حتى تدفن، حديث رقم ١٣٢٥، ٨٧/٢، صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب فضل الصلاة على الجنازة وأتباعها، حديث رقم ٩٤٥، ٦٥٢/٢.

(٤٩) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت في الصلاة، حديث رقم ٩٦٣، ٦٦٣/٢.

١. أوجه الرحمة في أوقات الصلاة المفروضة:

لقد علم سبحانه وتعالى قدرة الإنسان وحاله في معاشه، فلم يجعل الصلاة شاغلة للوقت كله، لما فيها من تفويت للمصالح الدنيوية، وهو ما يتنافى مع ما جبل عليه الإنسان، والله منزه عن ذلك جل شأنه، فهو لم يكلف الإنسان قط بما يتنافى مع ما خلقه عليه من طلب الرزق والعيش والسعي وغيرها، فجعل الرحمن للصلاة أوقاتا معلومة، يجدد فيها العبد عهده مع خالقه، ويصحو من غفلته وهذا من تفضل الخالق علي خلقه، وعدم رغبته في انقطاع العبد عن رحمة ربه، لأن "ما بين الصلاتين تحدث للعبد الغفلة والجفوة والقسوة، والإعراض والزلات، والخطايا، فيبعده ذلك عن ربه، وينحيه عن قربه، فيصير بذلك كأنه أجنبيا من عبوديته، ليس من جملة العبيد، وربما ألقى بيده إلى أسر العدو له فأسره، وغله، وقيده، وحبسه في سجن نفسه وهواه" (٥٠).

ومن إنعامه وتفضله سبحانه وتعالى أن للصلاة أوقاتا أو ساعات محددة رأفة بعباده، كي لا يشق عليهم في يومهم، فكان جل أوقات الصلاة نهارا فلم يكلف العبد بالصلاة في جوف الليل البعيد، يقول ولي الله الدهلوي:

"ثم لما آل الأمر إلى تعيين أوقات الصلاة لم يكن وقت أحق بها من الساعات الأربع التي تنتشر فيها الروحانية، وتنزل فيها الملائكة، ويعرض فيها على الله أعمالهم، ويستجاب دعاؤهم، وهي كالأمر المسلم عند جمهور أهل التلقي من الملأ الأعلى، لكن وقت نصف الليل لا يمكن تكليف الجمهور به–

(٥٠) أسرار الصلاة، ابن القيم، ٧٠.

كما لا يخفي- فكانت أوقات الصلاة في الأصل ثلاثة: الفجر والعشي وغسق الليل، وهو قوله تبارك وتعالى: (**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨)**) [الإسراء: ٧٨]. وإنما قال: " **إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ** " لأن صلاة العشي ممتدة إليه حكما- لعدم وجود الفصل- ولذلك جاز عند الضرورة الجمع بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء- فهذا أصل"(٥١).

ومن رحمته سبحانه وتعالى أن جعل الفاصل الزمني بين الصلوات ليس طويلا ولا قصيرا جدا، حتى ينغمس العبد في أمور معاشه ولا يفرط، حيث "لا يجوز أن يضرب في ذلك إلا حدا ظاهرا محسوسا يتبينه الخاصة والعامة، وهو كثرة ما للجزء المستعمل عند العرب والعجم- في باب تقدير الأوقات، وليست بالكثرة المفرطة، ولا يصلح لهذا إلا ربع النهار، فإنه ثلاث ساعات، وتجزئة الليل والنهار إلى اثنتي عشرة ساعة أمر أجمع عليه أهل الأقاليم الصالحة، وكان أهل الزراعة والتجارة والصناعة وغيرهم يعتادون غالبا أن يتفرغوا لأشغالهم من البكرة إلى الهاجرة، فإنه وقت ابتغاء الرزق، وهو قوله تعالى: (**وجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)**) [النبأ]، وقوله تعالى: (**لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ**) [الإسراء: ٦٦] (٥٢).

ومن أوجه الرحمة في تحديد أوقات الصلاة أن جعل الشارع الحكيم لكل صلاة وقتا موسعا له بداية ونهاية، ليتسنى للعبد أداء الصلاة فيه من غير ضيق ولا حرج، فلم تكن محددة بساعة بعينها، وهو مما يشق على الخلق، فكان لكل صلاة وقتها الاختياري والضروري، الذي يسار إليه في حالة الضرورة،

(٥١) حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ٣٤٨/١.
(٥٢) المرجع نفسه.

وفي حالة انشغال ذمة العبد في أول الوقت، كالذين يكونون في عمل ضروري: كالطبيب الجراح في غرفة العمليات أو المسافر أو الذي لا يجد ماء إلا بالبحث عنه أو شرائه.

كما أن أوقات الصلاة فيما بينها فيه رحمة بالعباد، "يجوز عند الحاجة أن يجمع المسلم بين صلاتي النهار، وهي الظهر والعصر في وقت إحداهما، ويجمع بين صلاتي الليل وهي المغرب والعشاء في وقت إحداهما، وذلك لمثل المسافر والمريض وعند المطر، ونحو ذلك من الأعذار" (٥٣).

٢. أوجه الرحمة في أقوال الصلاة وأفعالها:

لقد حفت الصلاة بالخيرات من طهارة وأذان وذكر، فمن أوجه الرحمة في الأذان للصلاة أن يردد مع المؤذن ما يكون جزاؤه الجنة وهي عين الرحمة والفضل، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا قال المؤذن: الله أكبر الله أكبر، فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر. ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: أشهد أن لا إله إلا الله. ثم قال: أشهد أن محمدا رسول الله، قال: أشهد أن محمدا رسول الله. ثم قال: حي على الصلاة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: حي على الفلاح، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. ثم قال: الله أكبر، الله أكبر، قال: الله أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله قال: لا إله إلا الله. من قلبه دخل الجنة" (٥٤).

ومن أوجه الرحمة في ترديد الأذان أيضا أنه موجب لشفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال حين يسمع النداء اللهم رب

(٥٣) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٤٢٨/٣.

(٥٤) صحيح مسلم: كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأل له الوسيلة، حديث رقم ٣٨٥، ٢٨٩/١.

هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته. حلت له شفاعتي يوم القيامة" (٥٥). وما أحوج العبد إلى شفاعة نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم يوم القيامة. فكان في الإعلان عن الصلاة في حد ذاته رحمة وخير كبير، ثم إن الصلاة لها أقوال وأفعال وهيئات خاصة، خصها الله سبحانه وتعالى بها، كي يكون فعل العبد خالصا لله، حتى يستجيب رحمته بهذه الهيئات وغيرها، حيث أخرج قيامها وقعودها وركوعها وسجودها عن المعتاد، لئلا يشتبه ما يفعل لله، بما يفعل لغير الله، كاستقبال القبلة وغير ذلك من الهيئات. ولما كان القيام والقعود فيها مشبها لقيام العادة من وجه وجب في بعض كحسن القيام والقعود أن يخرجه عن مشابهة المعتاد، ولما أشار الركوع والسجود بصورتهما لم يجب فيهما ذكر.

وإذا ميزت أفعالها عن أفعال عادة الإنسان، فأولى أن تتميز عن أفعال الحيوان، فلذلك نهى عن الإقعاء، وعن تدبيج الحمار، ونحو ذلك" (٥٦).

وفي اختصاص الصلاة بهذه الهيئات رحمة، لأن العبد فيها يستحضر الوقوف بين يدي الله بهذه الأفعال، فيكون باتجاهه يستغفره ويسأله، وفوق هذا كله يحقق عبوديته له، فيستوجب بذلك التفضل والإنعام عليه.

"وأمر بأن يستقبل القبلة- بيته الحرام- بوجهه، ويستقبل الله سبحانه وتعالى بقلبه، لينسلخ مما كان فيه من التولي والإعراض، ثم قام بين يديه مقام المتذلل الخاضع المسكين المستعطف لسيده عليه،

(٥٥) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الدعاء عند النداء، حديث رقم ٦١٤، ١/١٢٦.
(٥٦) مقاصد العبادات، العز بن عبد السلام، ١٧-١٨.

وألقى بيديه مسلما مستسلما ناكس الرأس خاشع القلب.. ثم كبره بالتعظيم والإجلال، وواطأ فلبه لسانه في التكبير، فكان الله أكبر في قلبه من كل شيء" (٥٧).

فالعبد عندما يتوجه إلى ربه، ينقطع عن مشاغل الدنيا المرهقة، ويقبل على عبادة ربه، التي جعل له فيها راحة ورحمة، وقد يخشى الإنسان على نفسه الوسوسة والانصراف في الصلاة. فجعل الله له ما يحفظه ويحصنه من الشيطان "فإذا شرع في القراءة قدم أمامها الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، فإنه أحرص ما يكون على خذلان العبد في مثل هذا المقام، الذي هو أشرف مقامات العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته، فهو أحرص شيء على صرفه عنه، وانتفاعه دونه بالبدن والقلب، فإن عجز عن اقتطاعه وتعطيله عنه بالبدن اقتطع قلبه وعطله، وألقى فيه الوساوس ليشغله بذلك عن القيام بحق العبودية بين يدي الرب تبارك وتعالى، فأمر العبد بالاستعاذة بالله منه، ليسلم له مقامه بين يدي ربه وليحيي قلبه، ويستنير ما يتدبره ويتفهمه من كلام الله سيده، الذي هو سبب حياة قلبه، ونعيمه وفلاحه، فالشيطان، أحرص شيء على اقتطاع قلبه عن مقصود التلاوة" (٥٨).

فالشيطان يترصد الإنسان، ويفسد عليه عبادته، ومن رحمته سبحانه وتعالى به أن جعل له ما يحميه، ويحول بينه وبين الشيطان، كي تخلص عبادته لربه وينال رضاه.

يقول ابن القيم رحمه الله "ولما علم الله سبحانه وتعالى حسد العدو للعبد وتفرغه له، وعلم عجز العبد عنه، أمره بأن يستعيذ به سبحانه وتعالى، ويلتجئ إليه في صرفه عنه فيكتفي بالاستعاذة من مؤونة

(٥٧) أسرار الصلاة، ابن القيم، ٧٢- ٧٣.
(٥٨) المصدر نفسه، ٧٤-٧٥.

محاربته ومقاومته، وكأنه قيل له: لا طاقة لك بهذا العدو، فاستعذ بي أعيذك منه، واستجر بي أجيرك منه وأكفيكه وأمنعك منه" (٥٩).

ومن رحمته سبحانه وتعالى على العبد أن جعل التكبير لله في الصلاة في جميع الانتقالات، يقول العز بن عبد السلام رحمه الله: "ولذلك شرع التكبير في جميع الانتقالات، لأن انشغاله في أطوار الصلاة بملاحظة أذكارها قد شغله عن ملاحظة الكبرياء، فشرع في ابتداء كل طور تجديد ملاحظة الكبرياء، ليوفي ذلك الطور حقه من الخضوع والخشوع" (٦٠).

ولقد قسم الله سبحانه وتعالى الصلاة بينه وبين العبد نصفين، حيث جاء في الحديث القدسي قوله تعالى" "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي، ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل". وهي رحمة من عنده سبحانه وتعالى على عباده المقبلين عليه العابدين له، فهل من متبصر في هذا الخير الوفير؟!

فينبغي بالمصلي أن يقف عند كل آية يقرأها من سورة الفاتحة وقفة يسيرة، ينتظر جواب ربه له، وكأنه يسمعه إذا: قال الله تعالى: قسمت الصلاة بين وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: (**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ**) قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: (**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**)، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: (**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**)، قال: مجدني عبدي- وقال مرة فوض إلي عبدي- فإذا قال: (**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**) قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال:

(٥٩) المصدر نفسه، ٧٥.

(٦٠) مقاصد العبادات، العز بن عبد السلام، ١٩.

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ (٧))

قال: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل"[٦١]، فيتأمل العبد قرأته في كل الصلوات، ويشكر ربه على هذه النعم السابغة التي تفضل بها عليه.

"ومن عبوديته أيضا: أن يعلم أن حمده لربه نعمة منه عليه، يستحق عليها الحمد، فإذا حمده عليها استحق على حمده حمدا آخر، وهلم جرا.

فالعبد ولو استنفد أنفاسه كلها في حمد ربه على نعمة من نعمه، كان ما يجب عليه من الحمد عليها فوق ذلك، وأضعاف أضعافه، ولا يحصي أحد البتة ثناء عليه بمحتمده، ووحمده بجميع المحامد، فالعبد سائر إلى الله بكل نعمة من ربه، يحمده عليها، فإذا حمده على صرفها عنه، حمده على إلهامه الحمد" [٦٢]. فحمد العبد ربه من رحمة ربه عليه.

ومن رحمته سبحانه وتعالى أن شرع في الصلاة الركوع الذي يعد ترجمة فعلية لخضوع العبد لربه، وتعظيما له وتحقيقا لعبوديته التي هي أعظم المقاصد وأعلى الخيرات والنعم، "ثم شرع له أن يحمد ربه، ويثني عليه بآلائه عند اعتداله وانتصابه، ورجوعه إلى أحسن هيئاته، منصب القامة معتدلها فيحمد ربه ويثني عليه بآلائه عند اعتداله وانتصابه، ورجوعه إلي أحسن تقويم، بأن وفقه وهداه لهذا الخضوع، الذي قد حرمه غيره"[٦٣].

---

(٦١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث رقم ٣٩٥، ٢٩٦/١.

(٦٢) أسرار الصلاة، ابن القيم، ٨٠- ٨١.

(٦٣) أسرار الصلاة، ابن القيم، ٩٥.

وإن كانت هذه رحمته سبحانه وتعالى في الركوع والرفع، فرحمته أعظم وخيره أوفر عند السجود، والهيئة التي يكون في الاتصال مباشرا فيسأل العبد حاجته والله يجيبه، فهذه الهيئات لها رهبة وقداسة ورحمة، يقول ابن القيم رحمه الله في هذا: "ثم شرع له أن يكبر ويدنو ويخر ساجدا، ويعطي في سجوده كل عضو من أعضائه حظه من العبودية، فيضع ناصيته بالأرض، بين يدي ربه، مسندة راغما له أنفه، خاضعا له قلبه، ويضع أشرف ما فيه وهو وجهه بالأرض ولاسيما وجه قلبه مع وجهه الظاهر ساجدا على الأرض، معفرا له وجهه وأشرف ما فيه بين يدي سيده، راغما أنفه، خاضعا له قلبه وجوارحه، متذللا لعظمة ربه، خاضعا لعزته، منيبا إليه، مستكينا ذلا وخضوعا وانكسارا، وقد صارت أعاليه ملوية لأسافله" (٦٤).

فهذه الهيئة إذا طابق الظاهر الباطن فيها حلت عليه رحمات ربه سبحانه وتعالى، وكان ممن ينالون الخير العظيم من تحقيق العبودية ونيل الجزاء الوفير، كيف لا يكون هذا في السجود والهيئة، التي يكون فيها العبد أقرب ما يكون من ربه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء"(٦٥).

وبين الرحمة والرحمة رحمة، أي بين السجدتين خير ورحمة، "وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكرر الاستغفار في هذه الجلسة، فيقول: "رب اغفر لي، رب اغفر لي، رب اغفر لي"، ويكثر من الرغبة فيها إلى ربه.... فشرع للعبد إذا رفع رأسه من السجود أن يجثو بين يدي الله سبحانه وتعالى مستعديا

(٦٤) المصدر نفسه، ٩٦.

(٦٥) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم ٤٨٢، ١/٣٥٠.

على نفسه، معتذرا من ذنبه إلى ربه ومما كان منها، راغبا إليه أن يرحمه ويغفر له ويرحمه ويهديه ويرزقه ويعافيه، وهذه الخمس كلمات، قد جمعت جماع خير الدنيا والآخرة، فإن العبد محتاج، بل مضطر إلى تحصيل مصالحه في الدنيا وفي الآخرة، ودفع المضار عنه في الدنيا والآخرة، وقد تضمن هذا الدعاء ذلك كله.

فإن الرزق يجلب له مصالح دنياه وأخراه، ويجمع رزق بدنه ورزق قلبه وروحه، وهو أفضل الرازقين. والعافية تدفع مضارها، والهداية تجلب له مصالح أخراه، والمغفرة تدفع عنه مضار الدنيا والآخرة. والرحمة تجمع ذلك كله. والهداية تعم تفاصيل أموره كلها" (٦٦).

وهكذا الرحمة والخير والفضل في كل دقيقة من دقائق الصلاة.

"وفي إعادة كل قول أو فعل من العبودية والقرب، وتنزيل الثانية منزلة الشكر على الأولى، وحصول مزيد خير وإيمان من فعلها، ومعرفة وإقبال وقوة قلب، وانشراح صدر وزوال درن ووسخ عن القلب بمنزلة غسل الثوب مرة بعد مرة.

فهذه حكمة الله التي بهرت العقول حكمته في خلقه وأمره، ودلت على كمال رحمته ولطفه، وما لم تحط به علما منها أعلى وأعظم وأكبر وإنما هذا يسير من كثير منها" (٦٧).

ثانيا: أوجه الرحمة في السنن والنوافل والتطوعات من الصلوات:

سأقتصر على بعض الأمثلة لكل نوع تفاديا للإطالة.

---

(٦٦) أسرار الصلاة، ابن القيم، ١٠٠-١٠١ بتصرف.

(٦٧) المصدر نفسه: ١٠٤- ١٠٥.

إن من رحمة الخالق بعباده أن جعل الصلاة أنواعا، ورتب على كل نوع جزاء حسب فائدته وفضله، فمنها الفرض وهو بدوره ينقسم إلى فرض عين كالصلوات الخمس، وفرض على الكفاية كصلاة الجنازة- سبق الحديث عنها-، وسنن منها المؤكدة كصلاة الوتر والعيدين....، ومنها سنن راتبة وأخرى نوافل وتطوعات، فكانت الرواتب والنوافل والتطوعات هي من جوابر الفرائض الخمس، وهي من فضله سبحانه وتعالى، حتى يتم عليهم فروضهم، ويجعلها كاملة، ويزيدهم قربا منه، وهذا فيه خير كثير، فالعبد بهذه الصورة دائم الصلة بربه في حماه وآمنه، فسبحان رب العالمين.

١. أوجه الرحمة في السنن المؤكدة:

انطلاقا من أن العبادات رتب، وفائدة كل عبادة على حسب رتبتها عموما كذلك السنن، فالمؤكدة أعلى رتبة من التطوعات والنوافل.

أ. صلاة الوتر: هي صلاة ركعة واحدة، يختم بها المصلي صلاة الليل، ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: "اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترا" (٦٨)، ورغب فيها الشرع، لما فيها من خير، وهي آخر صلاة في اليوم، فتكون قبيل النوم فيختم العبد يومه بصلاة تحفظه، وتحط عنه خطاياه، وترفع درجاته، يقول صاحب الحجة البالغة رحمه الله: "ووقت الشروع في النوم ليكون كفارة لما مضى وتصقيلا للصدأ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "من صلى العشاء في جماعة، فكأنما قام نصف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة، فكأنما صلى الليل كله" (٦٩)، ووقت اشتغالهم كالضحى، ليكون مهونا للانهماك في الدنيا وترياقا له، غير أن هذا لا يجوز أن يخاطب به الناس

(٦٨) صحيح البخاري، أبواب الوتر، باب: ليجعل آخر صلاته وترا، حديث رقم ٩٩٨، ٢/٢٥، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل مثنى مثنى، والوتر ركعة من آخر الليل، حديث رقم ٧٥١، ١/٥١٧.

(٦٩) صحيح مسلم، باب فضل صلاة العشاء والصبح في جماعة، حديث رقم ٦٥٦، ١/٤٥٤.

جميعا، لأنهم حينئذ بين أمرين: إما أن يتركوا هذا أو ذاك- وهذا أصل آخر"[٧٠]. وكل هذا مزيد خير ورحمة من الله جل جلاله.

ب. الاستسقاء: الاستسقاء معناه طلب السقية، والرحمة من الله بإنزال الغيث، وذلك بالتوبة والرجوع إلى الله تذللا واستغفارا وطعما في رحمته، ولقد شرعت هذه الصلاة عندما ينزل القحط بالناس، ويتضرر الزرع والخلق منه، وهذا بطبيعة الحال بما كسبت أيدي الناس، ولقد جعل الله هذه الصلاة رحمة بهم، ليغفر لهم ويغيثهم، قال تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ)** [الشورى: ٢٨]، والغيث من رحمات الله، يرسلها على عباده يصيب به من يشأ من المسلمين والكفار، وهذه رحمة عامة للخلق، وهي من النعم والأفضال التي لا تعد ولا تحصى، فصلاة الاستسقاء سبب لإيصال الرحمة للناس كافة فرحم الكافر بسبب صلاة المسلم، وهذا من روائع ديننا الحنيف، وربنا الرحيم الكريم، فهل من متعظ؟.

٢. أوجه الرحمة في صلاة التطوع:

أ. صلاة الضحى: هي من النوافل المرغب فيها لما تعود به من فائدة على صاحبها، فهي جامعة لخيرات كثيرة، لما جاء في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يصبح عن كل سلامي، من أحدكم صدقة، فكل تسبيحه صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى"[٧١]، والسلامي أصلها عظام الأصابع والكف، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله [٧٢]. فسبحان الله على هذا الفضل العظيم، الذي يسوقه لعباده بهذه الصلاة، ورغب في صلاة الضحى من غير إيجاب للمصلحة، وهي عين الرحمة، يقول ولي الله الدهلوي بهذا الخصوص: "كثير من الأشغال ينجر إلى مدة طويلة، ويكون التهيؤ للصلاة والتفرغ لها من الناس

(٧٠) حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ٣٤٩/١.

(٧١) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، وأن أقلها ركعتان، وأكملها ثمان ركعات، وأوسطها أربع ركعات، أو ست، والحث على المحافظة عليها، حديث رقم ٧٢٠، ٤٩٨/١.

(٧٢) والسلامي: كل عظم مجوف مما صغر من العظام، ويقال: السلامي عظام صغار تكون في فراسن الإبل وقد تكون في الإنسان: ومنه الحديث الآخر: على كل إنسان في كل سلامي صدقة، غريب الحديث، أبو عبيد القاسم بن سلام، ٣٨١/٤.

أجمعهم في أثناء ذلك حرجا عظيما، فلذلك أسقط الشارع الضحى، ورغب فيها ترغيبا عظيما من غير إيجاب، فوجب أن تشتق صلاة العشى إلى صلاتين بينهما نحو ربع النهار، وهما الظهر والعصر، وغسق الليل إلى صلاتين بينهما نحو من ذلك، وهما المغرب والعشاء، ووجب ألا يرخص في الجمع بين كل من شقي الوقتين إلا عند ضرورة، لا يجد منها بدا، وإلا لبطلت المصلحة المعتبرة في تعيين الأوقات- وهذا أصل آخر"(٧٣).

ب. ركعتا الفجر: وتسمى رغيبة، وهي من الصلاة التي رغب فيها الشرع، لما فيها من خير وصلاح للعباد، ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت: "لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم على شيء من النوافل أشد منه تعاهدا على ركعتي الفجر"(٧٤)، وما ملازمة رسول الله لها إلا لما فيها من الخير الكثير، ويشهد لهذا الكلام ما روته أمنا عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها" (٧٥). فهذه السنة وغيرها من السنن التي ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يفعلها كلها راقيات بأصل العبادة التي هي الصلاة إلى الكمال.

المبحث الثالث

أوجه الرحمة في الصلوات المخصوصة

المقصود بالصلاة المخصوصة هي تلك التي ارتبطت بظرف أو دخل عليها ظرف، فأصبحت تسمى به، ومنها ما هو رخصة من الشارع الحكيم، ومنها ما شرع لمصلحة، وفي هذا الموضوع سنعرض لبعض منها تفاديا للإطالة.

أولا: صلاة الاستخارة:

تصلى الاستخارة عندما يتردد الإنسان بين أمرين مباحين، فلا يدري أيهما أحسن له، ومعناها أن العبد يلجأ إلى ربه حتى يختار له، لأنه الأعلم بما يصلح بالخلق، فهي رحمة منه إلى عباده، حتى لا

(٧٣) حجة الله البالغة، ولي الله الدهلوي، ٣٤٨/١.

(٧٤) صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب تعاهد ركعتي الفجر ومن سماها تطوعا، حديث رقم ١١٦٩، ٥٧/٢.

(٧٥) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما، حديث رقم ٧٢٥، ٥٠١/١.

يلحق بهم فساد أو مضرة تلحق بدينهم أو بأموالهم أو بأنفسهم أو بعقولهم أو بأعراضهم، حيث كان الناس في الجاهلية يعتمدون في اختياراتهم على أمور شركية، نهى عنها الشرع بمجيء الإسلام، والاستخارة نعمة كبيرة من الله على الخلق، أن يختار لهم ما يناسبهم في دنياهم أو أخراهم، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمهم الاستخارة في كل شيء، عن جابر رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها، كالسورة من القرآن: "إذا هم بالأمر فليركع ركعتين، ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري- أو قال: في عاجل أمري وآجله- فاقدره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري- أو قال: في عاجل أمري وآجله- فاصرفه عني، واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به، ويسمي حاجته" (٧٦).

والمتأمل في دعاء الاستخارة يلمس رحمة الله بعبده أن جعل له ما يهتدي به، وهذا من فضله السابغ عليه، فوقاه ظلمة الحيرة والتردد والاضطراب، فعلمه كيف يلجأ إليه، يسأله الخير في كل أموره بصلاة غير مكتوبة، وبدعاء خاص، يسأل فيه الخير من الخالق سبحانه وتعالى، فالحمد لله أولا وأخيرا على نعمة الإسلام.

ثانيا: صلاة الخوف:

وفيها روايات متعددة، هي على حسب الحالة التي كان عليها المصلون في المعركة، وفي هذا المقام نورد رواية من الروايات الصحيحة، لبيان أوجه الرحمة فيها، ولقد شرعت صلاة الخوف لعدة معان، منها: أن الصلاة لا تسقط بالأحوال العارضة التي يمكن معها أداء الصلاة، هذا من جهة ومن جهة أخرى أن العبد يبقى في اتصال مع ربه، أيا كانت العوارض والظروف، وهذا في حد ذاته رحمة بالخلق، فهم أشد

(٧٦) صحيح البخاري، باب الدعاء عند الاستخارة، حديث رقم ٦٣٨٢، ٨١/٨.

احتياجا، لربهم في مثل هاته الظروف الاستثنائية، يستمدون منه العون، ويستغيثون به في الصلاة، فيعينهم على ما هم فيه، فيفتح عليهم، ويثبت أقدامهم، وهذه رحمة سابغة من الله، وجب على العبد أن يشكره عليها، بأن يقيم الصلاة كيفما كانت الأحوال من دون توان، ولقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم كيفية صلاة الخوف في روايات متعددة، يعلمنا فيها كيف تقام هاته الصلاة من غير تخلي عن مواجهة العدو، منها عن جابر بن عبد الله، قال: "شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف، فصفنا صفين، صف خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعدو بيننا وبين القبلة، فكبر النبي صلى الله عليه وسلم، وكبرنا جميعا، ثم ركع، وركعنا جميعا، ثم رفع رأسه من الركوع، ورفعنا جميعا، ثم انحدر بالسجود، والصف الذي يليه، وقام الصف المؤخر في نحو العدو، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم السجود، وقام الصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر بالسجود، وقاموا، ثم تقدم الصف المؤخر، وتأخر الصف المقدم، ثم ركع النبي صلى الله عليه وسلم وركعنا جميعا، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعا، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخرا في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نحور العدو، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم السجود والصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر السجود، فسجدوا، ثم سلم النبي صلى الله عليه وسلم وسلمنا جميعا". قال جابر: كما يصنع حرسكم هؤلاء بأمرائهم" (٧٧).

ثالثا: صلاة المسافر:

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "السفر قطعة من العذاب، يمنع أحدكم نومه وطعامه، فإذا قضى نهمته من وجهه فليعجل إلى أهله"(٧٨)، إن السفر يجلب المشقة للمسافر، لما أشار إليه الحديث، فالإنسان لا يهنأ له بال ولا نوم ولا طعام، لذا رخص للمسافر أن يقصر من الصلاة رفعا

(٧٧) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف، حديث رقم ٨٤٠، ٥٧٤/١.

(٧٨) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، حديث رقم ٥٤٢٩، ٧٧/٧، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب السفر قطعة من العذاب، واستحباب تعجيل المسافر إلى أهله بعد قضاء شغله، حديث رقم ١٩٢٧، ١٥٢٦/٣.

للحرج الذي يلحقه، وهذه رحمة من الله بعباده، حتى لا ينقطعوا عن العبادة وحتى لا تشق عليهم، ولقد بين لنا نبي الرحمة بفعله كيف تكون صلاة المسافر والأوقات التي يمكن جمعها مع قصرها في العديد من الروايات والمناسبات، حتى لا يتسنى لنا الأخذ بهذه المنحة الربانية في حالة السفر، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع بين صلاة الظهر والعصر، إذا كان على ظهر سير، ويجمع بين المغرب والعشاء" (٧٩) وغير هذا الشاهد كثير.

رابعا: صلاة المريض:

عن عمران بن حصين قال: كان بي الناصور، فسألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة، فقال: "صل قائما، فإن لم تستطع فجالسا، فإن لم تستطع فعلى جنب" (٨٠).

نستشف من هذا الحديث الكيفيات التي تؤدي بها الصلاة في حالة المرض، فإن كان الإنسان مستطيعا على القيام يؤديها قائما، وهذا الأصل، فإن لم يستطع فقد رخص له أن يصليها على الهيئة التي يستطيعها وهذه منة من الله سبحانه وتعالى على عباده، فلم يفرط في أحد لا من القادرين ولا من غير القادرين، فجعل الكل في صلة به مهما كانت أوضاعهم وأحوالهم، فهو يقبل منهم أعمالهم متى أخلصوا فيها له على الوجه الذي يستطيعونه.

وهي رحمة منه بعباده، كي يتم عليهم نعمة العبودية.

(٧٩) صحيح البخاري، كتاب أبواب تقصير الصلاة، باب الجمع في السفر بين المغرب والعشاء، حديث رقم ١١٠٧، ٤٦/٢.

(٨٠) صحيح ابن خزيمة، كتاب الصلاة، باب صفة صلاة المريض مضطجعا إذا لم يقدر على القيام ولا على الجلوس، حديث رقم ٩٧٩، ٨٩/٢.

الخاتمة

نورد في هذه الخاتمة أهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث:

١. من معاني الرحمة إيصال المصالح ودفع المفاسد عن الخلق في العاجل والآجل، ويكون هذا بالعبادة، أي بدخول العبد تحت التكاليف (الأوامر والنواهي)، الذي يضمن له النجاة، ومن هذه التكاليف العبادات- الصلاة.

٢. الصلاة سبب في تحصيل المصالح، ودفع المفاسد العاجلة والآجلة.

٣. تحقيق العبودية يستوجب الرحمة الخاصة بعباد الله.

٤. الصلاة رحمة من الله بعباده، وهي حبل الود بين العبد وربه.

٥. في إضاعة الصلاة خروج من الرحمة الخاصة بالمصلين.

٦. مبدأ العبادة ليس تحكميا بل هو رحمة ابتداء.

هذا جهد المقل، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

١. أسرار الصلاة والفرق والموازنة بين ذوق الصلاة والسماع، للإمام العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية، حققه وعلق عليه إياد بن عبد اللطيف بن إبراهيم القيسي، دار ابن حزم- دار اليمن، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ- ٢٠٠٣ م.

٢. إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

٣. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، للإمام العلامة أبي عبد الله محمد ابن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي الشهير بابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة- بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥- ١٩٧٥.

٤. التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٥. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، المحقق: شعيب الأرناؤوط- عبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة- الكويت، الطبعة الثانية: ١٤٠٧- ١٩٨٧.

٦. الحكم الشرعي بين النقل والعقل، الدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

٧. حجة الله البالغة، أحمد ابن عبد الرحيم بن الشهيد وجيه الدين بن معظم بن منصور المعروف بـ "الشاه ولي الله الدهلوي"، ضبطه ووضع حواشيه محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

٨. الدلائل في غريب الحديث، قاسم بن ثابت بن حزم العوفي السرقسطي، أبو محمد، تحقيق: د. محمد بن عبد الله القناص، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٩. الزهد، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم بن محمد، أبو بلال غنيم بن عباس بن غنيم وقدم له وراجعه: فضيلة الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف، دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

١٠. شعيب الإيمان، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

١١. صحيح ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة ابن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي- بيروت، (د،ت،ط).

١٢. الصحاح تاج اللغة وصحاح لعربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الرابعة: ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

١٣. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، (د،ت،ط).

١٤. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

١٥. العبودية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، المحقق: محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي- بيروت، الطبعة: الطبعة السابعة المجددة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

١٦. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، (د،ت،ط).

١٧. الكليات، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، المحقق: عدنان درويش- محمد المصري، مؤسسة الرسالة- بيروت، (د،ت،ط).

١٨. لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، دار صادر- بيروت، الطبعة: الثالثة- ١٤١٤هـ.

١٩. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

٢٠. محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى- ١٤١٨هـ.

٢١. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم- الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤- ١٩٨٣.

٢٢. مدونة الفقه المالكي وأدلته، الدكتور الصادق عبد الرحمن الغرياني، مؤسسة الريان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٢٣. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المحقق: صفوان عدنان الداوودي، دار القلم، الدار الشامية- دمشق بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ.

٢٤. مقاصد العبادات، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، تحقيق عبد الرحيم قميحة، مطبعة اليمامة، الطبعة الأولى ١٩٩٥.

٢٥. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، المحقق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

٢٦. مقدمة جامع التفاسير، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، حققه وقدم له وعلق على حواشيه د/ أحمد حسن، دار الدعوة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

٢٧. المقصد الأسني في شرح معاني أسماء الله الحسنى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، المحقق: بسام عبد الوهاب الجابي، الجفان والجابي- قبرص، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.